الفرّج وابن الفرات وابن بطوطة وراجع نزهة القلوب لحمد الله الكاتب الفارسيّ (في ص١٤٨) . هذا ولسان المدرسة ينشد اليوم:

بعد القراءة والتدريس ليس بها غير الصَدَى وغُراب البَين ينعيها
ان تسد الارض او تشقى فلا عجب فللزمان صُروفٌ في مَغانيها

(لهُ تتمة)

لبنان

نظر في اشغاله العموميَّة وزراعتهِ ومستقبلهِ الاقتصاديّ

للاديب اميل افندي خاشو سر مهندس لبنان سابقًا (تتمة)

تسميد الاملاك

ومن الابحاث التي تمسّ الزراعة السَّمادُ واصنافهُ فلا يمكنني ضرب الصفح عنهُ لكنّي لا اتجاوز الكلام العموميّ في ذلك

معلوم انَّ التربة اللبنانية من اصلها قويَّة مخصبة لكنَّ طبقات هذه التربة الزراعيَّة ليستْ بعميقة ولذلك تضعف بعد زمن قليل إن لم يُسرع الفلّاح الى تقويتها بالتسميد . وكان ارباب الفلاحة حتى السنين الاخيرة اذا ما عالجوا ارزاقهم وهيأوا بين الصخور والحصى شيئاً من التربة الزراعيَّة التجأوا الى السماد الطبيعيّ الذي ما كانوا يعرفون غيرهُ . الّا انَّ اهل الدامور تنبَّهوا الى قصور هذا السَّماد عن وفاء الحاجة وسبقوا اللبنانيّين في استحضار السماد الصناعي او الكيموي كما سبقوهم في جلب مياه الريّ الى اراضيهم فجلبوا كميَّة من هذا السماد من اوربَّة وبعد تجربته مدَّة سنتين على طريقة قانونيَّة تحقَّقوا ما في استعماله من الفائدة اليوم عمَّ استعمالهُ تلك الانحاء.

ولستُ أُريد بقولي السابق انَّ السواد الطبيعيّ او السرقين لا يصلح البتَّة فينبغي نفيهُ . كلَّا . لكنَّ فائدتهُ محصورة اذ يصلح فقط للاراضي التي ينقصها الفسفات . امَّا التربة الزراعيَّة فانَّها في حاجة الى غير ذلك من الموادّ المغذية المختلفة فانَّ بعضها تحتاج

الى الكلس وغيرها يحتاج الى البوتاسا وغيرها الى الفسفات فالسماد الكيموي مركّب تركيباً مختلفاً على مقتضى حاجة كلّ تربة

لمَّا اكتشف الكيمويُّون منافع الدمال الاصطناعي أبى الفلّاحون في اوربة اتخاذهُ ترقماً منهم انَّهُ يضرّ ولا ينفع. فخصَّت الدول لازالة هذه الاوهام في كلّ ايالة ومقاطعة بستاناً كانوا يقسمونهُ قسمين يزرعون قسماً منهما على الطريقة المألوفة عند الزرّاعين والقسم الآخر يعالجونهُ بالسماد الكيموي فيتحقّق ارباب الفلاحة بالعيان منافع الطريقة المستحدثة اذ كانوا يرون المزدرعات خاوية ضئيلة في القسم الاوّل ونامية زاخرة في القسم الآخر فلا يرتابون في فوائد السماد الكيموي ويتسارعون الى استحضاره . لأنَّ الارض مستودعة امينة للودائع تُعطي كما يُعطَى لها ان قليلاً او كثيراً

ولا يكفي لتحسين التربة ان تُسمَّد بالسماد الكيموي بل تحتاج ايضاً الى اصلاح واصلاحُها بازالة نقائصها الطبيعيَّة والكيمويَّة لتأتي بغلّات اوفر . وربَّما اجتمع الامران في السبب الواحد فانَّ الصلصال مُصلِح للاراضي الغالب عليها الرمل كما انَّ الرمل يحسّن الاراضي الصلصاليّة . واخصّ ما يُفهم باصلاح التربة ان تُكلَّس وتُحوَّر وتجصَّص امَّا تكليس التربة (chaulage) وتحويرها (marnage) وتجصيصها (plâtrage) فبأن يُذرّ عليها الكلس والحوَّارى والجصّ لكي تعمل فيها هذه الموادّ اعمالاً كيماويَّة من شأنها ان تغذيها وتقوّيها . ويلحق بهذا الباب تنظيف التربة من الفضوليَّات واحراق الاعشاب الضارَّة (écobuage) وفي ذلك فائدتان الاولى ازالة هذه النباتات المؤذية والثانية لانَّ الرماد الباقي بعد حرقها يحسّن صلصال التربة

وما قلتهُ هنا برضٌ من عدّ لا يمكنني الآن ان اتّسع بهِ وفي نيّتي ان اعود الى هذا الامر واستوفيهُ كما يجدر بهِ . وغاية ما استطيع قولهُ الآن انَّ الاراضي التي تغلّ الغلّات الوافرة من تلقاء ذاتها قليلةٌ جداً وإن وُجد منها شيء . فانها لا تأتي بمعظم غلّاتها الّا بمساعدة السماد الموافق لها . لانَّ التربة بعد الزرع تفقد كثيراً من خواصّها فلا بُدَّ لها من استئناف قوّتها واسترجاع المفقود بالتسميد . وعلى عكس ذلك ربَّ تربةٍ ضئيلة صلحت بالتسميد فأتت بغلّات واسعة بعد اصلاحها

التعليم الزراعي

لا يجهل احد ما صارت اليهِ حالة التعليم في بلادنا وكيف سوريَّة تحفل بالمدارس الزاهرة التي تعمّ كلّ طبقات السكّان من اعيانهم الى فقرائهم . فترى الاحداث حتى اولاد الفلّاحين يتعلّمون مع لغتهم الوطنيَّة اللغات الاجنبيَّة واصول العلوم العصريَّة . ومما يُستغرَب انك لا تجد بين هذه المدارس المتعدّدة مدرسةً واحدة تهتمُّ بتعليم اصول الزراعة . وذلك خلل عظيم في قطرٍ مثل القطر السوريّ حيث الزراعة تُعدّ من اكبر مرافق الوطن واغنى موارد ثروتهِ . وقد آلت الامور الى ما لا تُحمد عاقبتهُ فترى اهل الجبل لا يفكّرون الّا في التغرُّب او التفرنج فيهاجرون الى البلاد البعيدة او ينزلون الى المدن ليترقوا بالكتابة في بعض المحلات التجاريَّة او بخدمة بعض اصحاب المخازن وذلك براتب زهيد من مئة الى مئتي قرش في الشهر ما لا يكاد يفي بثمن طعامهم اليوميّ فضلًا عن ملبوسهم ومصروفهم واجرة بيوتهم

نعم انّي لعالم بان المهاجرة ضربت لبنان ضربةً أليمة فحرمتهُ من عَمَلتهِ الذين كانوا يجدّون في استثمار املاكهِ الّا انَّ التعليم ايضاً مسئول عمّا لحق لبنان من التقهقر اذ انَّ المتعلّمين خرجوا عن طورهم ووجّهوا افكارهم الى غير ما دعاهم الله اليه والله يدعوهم اوّلًا الى خدمة مسقط رأسهم بما تنالهُ يدهم قريباً دون الطمع بالثروة البعيدة . والزراعة اقرب اليهم من سواها فلو انقطعوا اليها ودرسوا خواصّها واتقنوا طُرُق تحسينها لربحوا الارباح الواسعة عن كثب دون ان يتجشّموا مضض الاسفار ويكابدوا آلام الغربة لنيل الاماني الباطلة . وليس دواء لهذا الداء الّا بأن يقدّر اهل لبنان قدر جبلهم الذي عليهِ مدار سعادتهم الزمنيَّة فانهم يجدون فيهِ فضلًا عن حسن الموقع وطيب الهواء تربةً تقوم لهم مقام المناجم الذهبيَّة التي تغنيهم دون ان تعرّضهم لآفات التمدّن المستحدث

٣ مستقبل لبنان الاقتصادي

بقي علينا ان نلقي النظر في مستقبل لبنان الاقتصادي . فان احوال الجبل اليوم غير احوالهِ امس وعلى احوالهِ الحاضرة مبنى استقبالهِ الاقتصاديّ . لما علّة التغيير الطارئ اليوم على لبنان فالمهاجرة . وان احصينا عدد المهاجرين من الجبل الى اميركة فانهم لا يقلّون عن ستين الفاً وإن قلتَ مئة الف لن تقول شططاً

ولهذه العلّة معلولات متعدّدة انعكس فعلها في كلّ احوال الحيـاة وكلّ طبقات السكّان. وقد احسّت بيروت نفسها وضواحيها بفعول هذه المهاجرة فانّ الصنائع خفّت والصنّاع قلّوا والعَمَلة لا يرضون بضعف الاجرة التي كانت تُعطى لهم سابقاً. ان اردتَ بناء يصعب وجود البنّائين. وان طلبت خادماً يخدمك أبى الّا بشروط ثقيلة. ولا يستقرّ عندك اشهرا حتى يطمع بارباح اعظم. وكذا قُلْ عن اسباب المعاش فانّ اللحم والبقول والخُضَر والفواكه تزيد اسعارها يوماً بعد يوم لقلّة العملة ولارتفاع اجرة المأجورين. والداء لا يزال يتفاقم والله اعلم ان كان هذا الفتق يقبل رتقاً واصلاحاً

وكأنّ القارئ يوقفني عند هذا الحدّ ويقول أتنسى انّ لبنان قد غني بالمهاجرة وانّ المهاجرين يرسلون كلّ سنة مبالغ من الدراهم لاهلهم او يعودون بهـا راجعين الى وطنهـم

أُجيب اني عالم بهذا الامر لكنّ هذا الغنى يبقى عقيماً دون فائدة للجبل. وبياناً لذلك نفترض انّ كلّا من المهاجرين الاميركيين او سواهم افاد لبنـان مئة فرنك او خمس ليرات فيكون مجموع ما حصل الجبل من الدراهم على يد المهاجرين ١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك او ٥٠٠,٠٠٠ ليرة. فهذه لعمري ثروة واسعة من شأنها ان تشفي فقر اهل لبنان. ولكن دعنا ننظر ما ينتج عنها من الفائدة

اعلم انّ قسماً كبيراً من هذه الدراهم يصيبهُ افقر اهل لبنان اعني اهل نواحي البترون وكسروان والمتن لأنهم لا يأنفون في اميركة ان يعانوا الاشغال المتعبة فيتجوّلون في البراري حاملين مـا يدعونهُ «الكشّة» فيرتزقون بذلك ويجمعون مالًا ينقلهم من حالة الى حالة فيصير الفقير غنياً بينما ترى الأسر الغنية سابقاً التي لم ترضَ ان تتجشّم مثل هذه الاسفار تتقهقر وتفتقر وناهيك تقلّب الاحوال ضرراً كبيراً يؤثّر في الطباع والاخلاق والمعاملات فيظنّ المستغني ان مالهُ يسدّ مسدّ الشرف والنسب والتهذيب فينبذ اعمال الفلاحة ليعيش عيشة الاغنياء

ولكن هَبْ انّ هذا الفلّاح المثري يريد ان ينتفع من دراهمهِ فماذا يفعل؟ ليس لـهُ الاختيار الّا احد هذه الامور امّا ان يشتري لهُ عقاراً وامّا ان يضع دراهمهُ في مصرف بفائدة ٣ او ٤ في المئة او يعقد مالهُ على الطريقة التي سنصفها

ويفضّل اللبناني بين الامور السابق ذكرها اقتناء الاملاك وان كان ثمنهـا الآن

يتجاوز كلّ الحدود (١ فيجعل رأس مالهِ في استملاك ارض لا ينال من استثمارها فائدة دراهمهِ اذ لا يربح خمسة او اربعة في المئة . مثال ذلك جلّ التوت الذي يبلغ ورق توتهِ حملًا اي ٦٠ كيلوغراماً فانهُ يُباع من ٢٠٠٠ الى ٤٠٠٠ قرش ومعدّل موسمهِ من الغالج (الشرانق) كيلوغرامان اعني اقّة ونصف. فأقّة الشرانق تُباع اليوم ٢٠ قرشاً. فيكون الربح ٣٠ قرشاً (٢ فاذا افترضنا انّ جلّ التوت لم يكلّف اكثر من ٢٠٠٠ قرش يكون الربح الصافي في السنة ١,٥ في المئة وهو ربح زهيد جدًّا

فاللبنانيّ اذن واقع بين احد امرين اما ان يبتاع لهُ عقارًا لا يستفيد منهُ في السنة اكثر من ١,٥ واما ان يضع دراهمهُ في المصرف (البنك) بفائدة ٣ او ٤ في المئة متعرّضاً لخطر فَقد رأس مالهِ بالافلاسات التي تتواتر يوماً بعد آخر . فكثيرون يرون اوفق من هذين الامرين ان يبتنوا لهم دارًا على الطراز الحديث يستغونهُ بالقرميد لكنّ هذه الدار تستغرق كلّ ما حصلوا عليهِ من المال بعد التعب والعناء الطويل ويقعون في ايدي اصحاب الربا الذين يأكلون مالهم بالمكر والخداع فيعودون الى فقرهم الاوّل وهذا كلُّهُ ثمرة الاستملاء والترفّع اذ اراد هؤلاء الفلاّحون ان يعيشوا عيشة الكبار ولو قنعوا لعاشوا مهنّئين بملازمة الاشغال التي اعتادوها فالمال يعمي عيونهم ويخرجهم عن طورهم فيقعون

ما طار طيرٌ وارتفعْ الّا كما طار وقعْ

فتكون احسن طريقة لاستثمار المال وضعهُ في المصارف مع ما يحصل من الخطر. لكنّ هناك امرًا آخر مضحكًا فان المتموّل يسلّم للمصارف مالهُ البالغ مثلًا الف او الفي ليرة بفائدة ٤ في المئة . فلا يلبث بعد ايّام أن يأتي الى البنك ذاتهِ رجلٌ من قرية المتموّل ولعلهُ من اصحابهِ او من اهلهِ وهو في حاجة الى ٢٠٠ ليرة فيستعيرها من البنك بفائدة ٨ في المئة بل ١٠ و ١٢ في المئة. وذلك بشروط فاحشة وهو رهن بيت او عقار يساوي ضعف المبلغ المستعار واكثر

فليت شعري أما كان أولى بهما وافضل لنفع المتموّل والمستعير معًا لو كانا اتّفقا

---

١) قد بيع ذراع الارض المربّع بليرة انكليزيّة كما يباع عقار امّهات المدن

٢) ولم نحسب هنا كلفة حراثة الارض

بينهما فاستثمار هذا من ذاك على شروط مرضيَّة دون توسّط البنك وتعريض نفسهما لخطر فقد المال والعقار في المصارف . وما اقولهُ هنا اوضح من النهار وترى مع ذلك اهل الجبل يلقون انفسهم في معاملات الصرّافين ببساطة غريبة وهم لا يدرون انَّ ثمة الطامَّة الكبرى

فكيف يا تُرى النجاة من هذه الحالة ؟ انَّ الامر بسيط والنجاة سهلة لمن يريدها وانَّما الطريقة المثلى في ذلك الاتفاق والتعاضد فبدلًا من أن يتراكض اهل لبنان الى الاجانب فلينشئوا لهم في كلّ قرية او في كلّ ناحية صندوقًا ماليًّا يودعهُ كلّ من لهُ دراهم مالهُ الزائد عن نفقتهِ . وكلّ من لهُ مال في هذا الصندوق يكون شريكًا . والشركاء يختارون رجالًا مقتدرين وموثوقًا بهم لاستثمار هذا المال . وهؤلاء الوكلاء يقرضون الدراهم لاصحاب الاملاك كما يرونهُ اصلح للشركاء وانسب لحالة المستقرضين وغناهم بالعقار . وخلاصة القول انَّ الشركة تقوم مقام البنك في دائرتها المحليّة يتولّى تدبيرها اصحاب الاسهم . ويمكن الشركة المذكورة ان تتعاطى اعمالًا تجاريّة شتّى تفيد الناحية كالقروض الرهنيَّة واعمال البيع والشراء ولستحضار الادوات الزراعيَّة واقتناء الارزاق لاستثمارها

فترى ممَّا سبق انَّ اهل لبنان لو ارادوا لامكنهم أن يحتشوا احوالهم دون ان يقامروا بالهم ويعرضوهُ كما يفعلون لاخطار المضاربات

وهذه الصناديق الماليَّة المحليَّة قد أُنشئت اليوم في اغلب بلاد اوربة ولاسيَّما في البلاد الزراعيَّة على طرائق مختلفة وتحت شروط خاصة . وهي قد بلغت في بلجكة اطوار كمالها . فانَّ الشركات المحليَّة قد ائتلفت وانضمَّت الى شركة تشمل المقاطعة كلها وشركات المقاطعات تتَّصل بشركة مركزيَّة عموميَّة بحيث يمكن اصحابها ان يتعاطوا اعمالًا تجاريَّة او صناعيَّة واسعة . وممَّا تتعاطاهُ هذه الشركات في بعض البلاد أنها تصطنع السَّماد الكيموي فتبيعهُ للشركات المحليّة وغيرها قد ابتاعت أدوات زراعيَّة للحراثة وللحصاد وللتذرية . ولهذه الشركات مهندس زراعي ولها مُختبَر تُفحص فيه البذور والحبوب على طريقة كيمويَّة وهلم جرًّا

ولو تشكَّلت في لبنان شركة كهذه لأمكنها ان تستحضر بزر دود القزّ فتفحصهُ بالمجهر وتبيعهُ لاهل الجبل وكذلك البذور يمكنها ان تسعى بتحسينها

ومجمل القول انَّ احوال الفلاحة والزراعة في لبنـان متوقفة على شركات كهذه يستعين بها كلّ الاهلين لصوالحهم فيفلتون من ايدي الذين يرصدونهم لسلب اموالهم. فعلى كلّ قرية وان شئت قُلْ قريتين او ثلاث قرى ان ينشئ اهلها لهم صناديق ماليَّة كما سبق وصفها يمكنهم ان يجمعوا فيها حتَّى المبالغ الزهيدة كخمسين قرشاً مثلاً. وكلّ من يودع شيئاً من المال في هذا الصندوق يُعطى وصلاً بما ادَّاهُ من المال ليُعطى في اوان التقسيط حصَّتهُ من الربح على قدر ما اودع من الدراهم

وهذه الشركات الاقتصاديَّة لا تمنع بعض المتموّلين من ذوي الرساميل البالغة ان يتَّفقوا بينهم ويشتركوا في انشاء صناعة او معمل او غير ذلك ممَّا يفيد النواحي كتدوير الارحية بمحرّك البترول وفتح معمل لنشر الخشب بالادوات الميكانيكيَّة او بناء اتاتين متواصلة العمل وذلك على السواحل لسهولة النقل

ومن الصناعات التي تصلح لهذه الشركات جمع الالبان وتربية المواشي والخنازير والدجاج على الطرائق العلميَّة المستحدثة

وقد سبق ايضاً اهلُ المتن غيرهم من اللبنانيين الى مثل هذه الاعمـال. ونخصّ بالثناء قرية صليما فان اهل هـذه القرية بحسن مساعي شيخهم الهمام حبيب شهبان محبُّون للترقي فتراهم اليوم يتسارعون الى مباشرة الامور النافعة دون أن يضنُّوا بعلمهم او دراهمهم ولا نشكّ انَّ النجاح يكلّل قريباً مشاريعهم الطيّبة

وفي الختام نذكّر اهل لبنان بمثل افرنجيّ يقول انَّ الانهار الكبيرة تتكوَّن من الجداول الخفيفة ونحضُّهم على جمع قواهم لما فيهِ صالحهم. لكنَّ جمع القوى لا يتمّ الَّا بتجرّد المجتمعين عن منافعهم الخاصَّة ليسعوا كلٌّ في خير اخيهِ على مثـال الاعضاء في الجسم الواحد التي لا تُصيب منفعتها الَّا بطاب منفعـة الكلّ. وفقنا الله الى كلّ عمل نافع فيهِ صلاح البلاد وفائدة العباد

(تمت)